

العولمة واستراتيجية التحول المعرفي مقاربة حفرية في أنساق المفاهيم المعرفية

د . عبد الغني بارة

جامعة سطيف

إنَّ الهمَّ الذي لأجله يقوم هذا المشروع، هو الحفر والنَّيش في الأنساق المعرفية والأجهزة المفاهيمية التي تقف وراء تشكُّل المفاهيم والمصطلحات في إطار ما يعرف اليوم بـ"فتوحات العولمة"، أو "كشوفات ما بعد الحداثة"، حيث تم الانتقال من المصطلح النَّقدي إلى الثقافي إلى الاقتصادي (الرقمي/ الإلكتروني)، وبدل الحديث عن العقل البشري أضحي الاهتمام منصباً على العقل الآلي، وانتهى دور الإنسان مرسلاً لِيُفسَّح المجال إلى نظام الوسائط التي تتيح نقل المعطيات والعلامات وإدارة الأعمال والأموال على بعد، وفي زمن قياسي، يقاس بسرعة الضوء، أو قل "سرعة الفكر" على حدِّ تعبير أحد علماء هذه المعرفة الجديدة (العالم المَعُولَم).

أمام هذه التحولات المعرفية في منظومة المفاهيم، أضحي مفيداً القول، إنَّ المصطلحات باعتبارها بوابة العلوم ومفتاحها، تعدَّ أولَّ مظهر تتبدَّى فيه هذه المعوِّفة الجديدة، أو قل هي الوسيط الذي يعمل على ربط البعيد بالقريب، والدخيل بالأصيل، بل ويغتنى الثقافي بالاقتصادي، لأنَّه - أي المصطلح - في المحصلة، نتاج محاضن معرفية كبرى يُصطلح عليها "الأنظمة المعرفية" للثقافة الواحدة، حيث ينشأ المصطلح ويتشكَّل قبل أن يُبعث به إلى سوق الزواج، حيث التداول والانتشار. فترول، إذ ذاك، الحدود بين العلوم والمجالات، ويصبح المصطلح المتداول في مجال النَّقد أو الأدب مرتبطاً معرفياً بقرينه في الاقتصاد والسوق، أو قل يسيران ويعملان جنباً إلى جنب، وإنَّ تعدَّدت المسميات.

وهذا، فيما نحسب، من ثمار العولمة، إذ جرَّت، والقول لأحد الباحثين، عولمة الاقتصاد معها عولمة الثقافة، فكما يدور الحديث، في مجال الاجتماع، عن تآكل الحدود وتلاشي الهويات، يشيع في الاقتصاد القول عن انتشار الشركات متعدِّدة الجنسيات، وإلغاء الأسواق الوطنية وتعويضها بالأسواق العالمية، أمَّا في عالم الإعلام الآلي، فالكلام يدور حول المجتمع السبراني أو مجتمع الإنترنت، حيث يتشكَّل مجتمع تقني جديد لا يعترف بالحدود أو الهويات، وإذا جئنا إلى عالم النَّقد، فمدار الكلام عن نظرية التناص، حيث تتمَّ هجرة النصوص وارتحالها داخل الثقافة الواحدة، أو من ثقافة إلى أخرى، كما تتعدَّد النصوص وتتداخل على سطح النصِّ الواحد، بل وتتعدَّد قراءة النصِّ الواحد قراءات متعدِّدة، وهذا بفضل ما يعرف بالقارئ الذي تعدَّدت النظريات حوله قصد ضبط مفهوم قارِّ له، من قارئ نموذجي إلى قارئ مثالي، إلى قارئ مخبر، إلى قارئ

مبدع، إلى قارئ تفاعلي، إلى قارئ أعلى، وصولاً إلى القارئ التواصلية كثمرة من ثمار الرؤية التداولية، حيث يتم الحديث عن المجتمع التداولي/ التواصلية. وغير بعيد عن هذا التواضع والاتساق يتم الحديث عن "الترجم الآلي" كمنحى جديد اقتضاء ميلاد النص الإلكتروني، وكذا الحديث عن "الترجمة الفورية"، تجسيداً لأفاق المجتمع التداولي، حيث يكون التواصل مباشرة دون إحساس بالدونية أو العجز، أو أفضلية لغة على لغة، إذ الغاية، في المحصلة، هي التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان.

هذا التداخل في المفاهيم، يعضد ما تم إقراره سلفاً، وهو أن هناك أجهزة مفاهيمية تتحكم في صياغة المصطلحات وتشكيلها داخل الثقافة الواحدة؛ فالثقافة الغربية انتقلت، مثلاً، من خلال ما تم عرضه، من سلطة العقل/ النسق/ الأدوات/ المتعالي، في إطار ما يعرف بفلسفة العقل، أو الفلسفة التنويرية، حيث يُعزى للعقل سلطة إنتاج المعرفة والبحث عن الحقيقة، إلى سلطة اللاعقل/ الشك/ العدمية، في إطار ما يعرف بفلسفة التفكيك أو الاختلاف، حيث تم الإعلان عن إعادة صياغة مبادئ الفلسفة بإلغاء اليقينيّات التي أقرها العقل/ اللوغوس، ولا يكون ذلك إلا بتقويض مركزيته وإثبات هشاشة فروضه، ومن ثم أصبحت الحقيقة وهماً، فتعددت واختلفت باختلاف زوايا النظر، أو قل أضحت رؤية منظورية بمصطلح نيتشه، لنصل إلى ما يعرف بسلطة العقل التواصلية/ الحوارية/ المتعدد، حيث يُحاوَر العقلُ جانبُه الآخر اللاعقل، وصولاً إلى العقل العددي/ الرقمي/ الآلي/ الإلكتروني/ الوسائطي، حيث تم إشاعة سلطة النهايات (نهاية التاريخ، نهاية الإنسان/ المؤلف، نهاية الميتافيزيقا، نهاية الأيديولوجيا، نهاية الحقيقة، نهاية المكتبة، نهاية القومية، نهاية الدولة، نهاية المدرسة، نهاية النقد ..) كبيان تأسيس (مانفستو) عن ميلاد مرحلة جديدة في تاريخ الجنس البشري، يصطلح عليها بمرحلة "ما بعد الإنسان" Posthumain. فيها يتجاوز الإنسان المؤنسن بكل ما يحمله من طوباوية ودعوى الحرية والعدالة وغيرها من الشعارات إلى كائن بشري جديد يصطلح عليه "الكائن الوسيط" Médium، الذي يلغي ذاته وكيونته متجاوزاً صراعاته، داعياً إلى الحوار والتواصل.

وتراجع الإنسان المؤنسن أمام الإنسان العددي Homme numérique، ليس وليد المجتمع المعولم فحسب، وإنما هو تطور طبيعي لمسار العقل في الفكر الغربي، إذ منذ أن فسح المجال للعقل في القرن السادس عشر على يد الفلاسفة التجريبيين، وصولاً إلى فلاسفة العقل، انط، ديكرت، هيجل، تم إقباره والإجهاز على طموحه في جلب السعادة لنفسه، وليس أدل على ذلك من الحربين الكونيتين كثمرة من ثمار العقل، وما إعلان "فوكو" موت الإنسان في النصف الثاني من القرن العشرين إلا فضح لمركزية العقل الغربي. فأصبح الحديث عن الأنساق والبنى والأنظمة وإمبراطورية العلامات، وسلطة النص، وتشكيلات الخطاب، والكتابة، ولم تعد اللغة مرآة تتجلى فيها الأشياء، وإنما هي بيت الوجود الذي يسكنه الكائن، على حد تعبير هيدغر، فالأشياء تخرج منها كائنات لغوية لا علاقة لها بالواقع، وانتهى دور الإنسان دالاً؛ إذ لا يقول ما يعني، وإنما اللغة

تعني ما تقول. فالحقيقة، إذاً، لم تعد من إنتاج الإنسان في علاقته بالواقع، بل هي من إبداع هذه الأنظمة النصية التي تخلق واقعها الخاص، الواقع النصي، النص المكتوب، الذي تحول في ظل الثورة المعلوماتية إلى "واقع فائق" Hyperreel، ومن ثم "النص الفائق" Hypertexte، النص الإلكتروني، وانتهى، إذاً، دور الأنا المتعالية، والذات المفكرة، والقارئ الأعلى، النموذجي، المثالي، الذي يعيد كتابة النصوص وإنتاجها بوصفه فعالية قرائية تعيد بعث المكتوب وجعله فاعلاً عبر فعل القراءة. ليفسح المجال أمام القارئ السبراني / الأثيري Cybernétique/Virtuel، الذي يعبر عن مرحلة "ما بعد الإنسان"، أو "الإنسان العددي"، أو الكوكبي، أو الإنسان الأخير، أو الإنسان العابر homme L'aléatoire، ككائن بشري جديد، إنه الإنسان "الوسيط الذي لا يعتبر نفسه أفضل من بقية الكائنات، بل الذي يعيش وسط الطبيعة بوصفه جزءاً من موجوداتها، والذي تقوم العلاقة بين أفرادها على اختراع الوسائط وخلق الأوساط من أجل التواصل والتعايش.. مثل هذا الفاعل البشري، لا هو بالأعلى ولا بالأدنى، لا بالإلهي ولا بالشيطاني.. لا بالمثالي ولا بالماضي.. لا يدعي أنه منقذ البشرية ومخلصها، كما لا ينتظر أن ينقذه سواه، وإنما هو يتصرف بوصفه مسؤولاً عن نفسه كما عن سواه". وهذا المصطلح ما بعد الإنسان، أو الإنسان الجديد لا يتعلق الأمر، والقول لأحد الباحثين، بوجود كائن جديد، بقدر ما يتعلق الأمر بنمط جديد من الوجود تتيحه الثورة التقنية والمعلوماتية، شعار هذا الإنسان "لا تكن ذاتك"، و"لا غيرك"، بل "تغير عما أنت عليه"، لكي تستطيع التواصل والتعايش مع غيرك، بلغة الحوار والمفاوضة، وثقافة المشاركة الفعالة والمسؤولية المتبادلة.

إذاً، هناك مجتمع جديد، هو المجتمع الإعلامي الذي تلاشت على سطح نصه الإلكتروني الحدود والخصوصيات، بل تأكلت الهويات وازمحلّت الفروقات بين الشعوب والثقافات، إذ إن التبادل الرقمي الخارق للحدود العابر للقارات قد أعلن عن ميلاد مجموعات بشرية جديدة، يصطلح عليها المجموعات السبرانية أو الافتراضية التي لا ترضى بمنطق المجتمعات القديمة، حيث يشترط مراعاة الروابط اللغوية والعرقية والدينية لقيام مجتمع، إنه المجتمع الافتراضي / الأثيري VIRTUEL، القائم على برامج المعلومات وشبكات الاتصال، في عالم اصطناعي يقوم على الخيال الواسطي / الميديائي MEDIOLIQUE، ومن ثم تصبح الحقيقة هي مجموع العوالم الافتراضية المصطنعة المتعددة عبر الوسائط المتواصلة اللامنتهية، وتكون اللغة الرقمية بدل المكتوبة، الأمر الذي يستدعي ولادة النص الإلكتروني ومعه القارئ السبراني CYBERNETIQUE. ولعل من أهم خصوصيات اللغة الرقمية أنها "لمسية أكثر مما هي يدوية، وهي سريعة وآنية بقدر ما هي أثرية وغير مادية"، خلافاً للمكتوبة التي تحمل طابع الخطي التسلسلي، كما أن النص الإلكتروني "هو نص متشعب وعنكبوتي، بقدر ما هو ذو طابع تعددي أو تركيبي. ولذا فهو يتيح مختلف وسائل الاتصال من سمعي وبصري ومرئي".

هكذا، ومن على شرفة ما تقدّم، يمكن القول، إنّ المعرفة في تحوّل مستمر، وإنّ دعاوى الانكفاء على الذات والانغلاق على منجزاتها يعيق طموح الكائن البشري في التحرر من كلّ سلطة تقف حاجزاً بينه وبين أحلامه في بلوغ أقاصي العالم واستكشاف خفيّ هذا الوجود، وما لم يشأ الإفصاح عنه، لذا، فالانفتاح على مشاريع العولمة واستقبالها بعقل نقدي معرفي، قد يسهم في بلورة الدخيل/ الغريب وجعله ملكاً مشاعاً، لأنّه، أولاً وآخرًا، من إبداع الإنسان، كما يحسن التفكير في كيفية إعادة صياغة الأفكار الجاهزة، وذلك بمخلخلتها، وتعرية مركزيتها، وبعث البحث عن كينونة الإنسان في هذا الوجود، وتجليّة الخطاب المقهور/ المغيّب/ المسكوت عنه، ولا يكون ذلك إلاّ بإتقان لغة التداول وثقافة الحوار كمرحلة جديدة في هذا الوجود، مرحلة العقل التداولي الذي يسعى إلى كسر الثنائيات الوهمية، الأنا/ الآخر، العقل/اللاعقل، النخبة/ الجمهور، الثقافة/ الاقتصاد، كثنائيات تزيد من غبطة الكائن وتمنع تواصله وتشلّ طاقته على التفكير والإبداع.